الحمامة الثالثة

للكاتب النمسوي ستيفان زفايج

بقلم الأديب حسن فتحي خليل

تتحدث الكتب المقدسة عن قصة الحمامتين اللتين أرسلهما نوح من الفلك لكشف الأرض ، بعد أن أقلعت السماء وغطى الماء كل اليابسة

ولكن — هل يدري أحدنا الرحلة التي قامت بها الحمامة الثالثة ؟

كانت سفينة النجاة قد ألقت مراسيها على الجودي ووقف نوح يسرح الطرف فيما حوله فلم يقابله سوى الماء . فاضطر إلى أن يرسل حمامته الأولى لتبحث عن اليابسة خلف ذلك الضباب الكثيف

حلقت الحمامة ، ونشرت جناحيها حول الشرق ثم الغرب ، ولما نال منها التعب عادت إلى السفين لتخبر سيدها أن الماء ما زال يغمر على جميع جوانب الأرض

انتظر نوح سبعة أيام كان المطر قد انقطع خلالها وأعاد الاستطلاع فأرسل حمامته الثانية

تركت الحمامة السفين في الفجر وعادت في الغروب تحمل في منقارها غصن الزيتون ؛ فأدرك نوح أن الماء لم ينحسر إلا عن قمم الأشجار فحسب

وبعد سبعة أيام أخر أرسل حمامته الثالثة فطارت تجوس خلال الدنيا . عادت السفين خيرا وانتظر عودتها في الغروب ثم في اليوم التالي واليوم الذي يليه ، ولكنها لم تعد . فأدرك نوح أن السلام قد عم الأرض وأن الماء قد انحسر عن وجهها تماما ، وأما الحمامة نفسها فلم يعد يسمع لطيرانها حفيفا ولم يعرف أحد قصتها حتى هذه الأيام

ولكني أسوق الآن — في هذه الحكاية التالية — رحلة تلك الحمامة وما كتب لها في لوح القدر

حين بسطت جناحيها في الهواء الذي غدا هادئا عطرا بعد هطول الأمطار شعرت بالحرية في ذلك الفضاء المتسع حولها ، فطارت عالية في الأجواء ، ملوة باليابسة

والماء ، منتشية بالسعادة وكأنها فى حلم بهيج .. ثم رأت الأرض وكأنها خلقت من جديد ، فنسيت السفين والمهمة التى طارت من أجلها ولم تفكر فى العودة؛ لأن الأرض أصبحت الآن فرسها والسماء عرشها

جعلت تحلق فوق ذلك العالم الخرب ، وتتقدم وهى لاتشعر بنفسها من فرط سرورها ، حتى إذا ما أحست أخيرا بالتعب جذبتها الأرض نحوها شيئا فشيئا . وما أن أقبل المساء حتى كانت فى أعماق غابة لا تعرف لها اسما ، واختفت بين غصون أشجارها تستريح من عناء الهجرة الطويلة ، فرستها الأوراق كما هدهدها النسيم الهادئ ، وظللتها الأشجار بظلالها الوارفة ، ونلاشى كل ما تذكره عن السماء الشاسعة ورحلتها الطويلة الساحرة ، ولم تعد تشعر بمرور الزمن بعد أن التحفت تلك القبة الخضراء

كانت الغابة التى اختارتها مأوى لها ركنا من أركان عالمنا الذى نعيش فيه ، ولم يكن أحد من البشر قد طرقها بعد أو جاس فى خلالها ، فعاشت فى وحدتها تلك وكأنها تنسج حلما لذيذا . وبدت عشها ، وتوالت الأعوام عليها ، حتى أن الموت نفسه لم يكن يذكر عنها شيئا ، إذ أن تلك المخلوقات الفريدة المتنوعة التى رأت العالم قبل الطوفان لا يمكن أن يفزعها الموت ولا ينسى لأى شخص قصها

دارت الأيام دورتها وشعرت حمامتنا باقتراب الإنسان منها ، فهاهى ذى الأشجار وقد قطعها الرجال فأمست والظلام ينتشر حولها من كل جانب . وهب هى ذى ضحكات العاشقين الرقيقة وهم يمرون بقربها وقد اشتبكت أذرعتهم . وأناشيد الصبية وهم يجمعون الزهور تطرق سمعها من بعيد . كانت تصل إليها تلك الأصوات المنبعثة من عالمنا وهى كامنة فى مخبئها ، ومع ذلك لم يتطرق الخوف أو الفزع إلى قلبها

ولكن جاء ذلك اليوم الذى أنت فيه الغابة أنينا مؤلما ، وقصف الرعد وكأن الأرض ستشطر شطرين : ورأت الكتل المعدنية الكبيرة تتطاير أجزاؤها مع الريح حتى إذا ما هوت إلى الأرض انفجرت فى دوى مروع فتحطمت الأشجار . ولاحظت هؤلاء الرجال بملابسهم الرسمية المختلفة الألوان ، وكل منهم يرصد الموت للآخر بآلاتهم الخفية التى تشعل النيران وتجلب الدمار .. فيلمع البرق فى السماء ثم يعقبه انفجار هائل مفزع فى الأرض

استيقظت الحمامة من سباتها . كان الموت والفناء يحدقان بها فنشرت جناحيها وطارت فى الهواء فزعة وجلة خائفة تبحث عن مأوى جديد بعيد عن تلك الغابة

الحمامة .. تبحث عن مأوى السلام

حامت حول العالم ، ولكنها أنى ذهبت لا تجد سوى رعود تلك الحروب البشرية المتوالية وبروقها ؛ لقد عاد الطوفان .. ولكنه ليس طوفان الماء إنما هو طوفان اللهب والدماء

جعلت تطير حول أجزاء السفينة علها تجد مكانا تستريح فيه وتستجم ثم تعود بعدها إلى نوح حاملة غصن الزيتون بمنقارها ، ولكنها لم تهبط ذلك المكان المقصود ، فطوفان الخراب الآدمي يعلو رويدا رويدا .. تلك الجثث المزقة المحترقة تتطاير أشلاؤها في كل مكان

ولا تزال الحمامة المسكينة تبحث عما تصبو إليه فلا تستطيع : فالسلام والوئام لم يعد لهما مكان يقيمان في عالمنا هذا ، وستظل طائرة خائفة لن تجد لها مأوى حتى يتم الزمان دورته

كما أنه لم يتسن لأحد منذ بدء الخليقة حتى الآن رؤية تلك الحمامة المفقودة ، الباحثة عن السلام ، والتي تتحدث عنها القصص الدينية ، ولكنها ترفرف بجناحيها فوق رؤوسنا ، غاضبة مزمجرة وقد أضناها التعب . فإذا ما استيقظ الناس في جوف الليل فنادرا ما يسمعون ذلك الحفيف الغريب ثم صوت اندفاع سريع في الظلام وهمهمة مخلوق قلق يكاد يشرف على الجنون في سكون الليل . . وأخيرا يسمعون صوت الجناحين يخفقان ويتبع الخفقان طيران مفاجئ

إن خواطرنا المظلمة تحوم حول أجنحتها ، وآمالنا تذوي في مخاوفها .. تلك التي ترتجف بين الأرض والسماء ، تلك الحمامة الحائرة التي ستحمل أخبار نهايتنا إلى الملأ الأعلى

وهاهو ذا العالم اليوم ، وبعد أن انصرمت تلك الآلاف من الأعوام ما زال يتطور من يد يده إليها فتنتهي بذلك تلك المحنة

حسن فتحي خليل

اقرأ الرواية في أول كل شهر وفي منتصفه ،
والرسالة في صباح كل أحد من كل أسبوع
بدل اشتراك الرواية في السنة ١٢٠ قرشا وبدل اشتراك
الرسالة ١٠٠ قرش وبدل اشتراكهما معا ١٨٠ قرشا